العلوم عند العرب

(تابع لما في الجزء الثاني عشر)

واما الطبّ فقد كان عند العرب قديماً على ما سبق الايماء اليهِ الا انهُ كان مقصوراً على المجرَّبات كما هو شأن كل امة في حال بداوتها . واول من ذُكر من العرب انهُ تناولهُ عن درس الحرث بن كلدة المشهور من اهل الطائف رحل الى ارض فارس واخذ الطب عن اهل جُنديسابور وغيرها . ثم انهُ لعموم الحاجة الى هذا الفن تنبه لهُ الخلفآء قبل غيرهِ من العلوم وكان اول من اهتمّ بهِ منهم مروان بن الحَكَم رابع خلفآء بني أُمية وكان طبيبهُ ماسرجويه البصري وهو سريانيّ اللغة يهوديّ المذهب فعرَّب لهُ كتاب أَهرُون الاسكندري المعروف بالكُنَّاش[1] وهو اول كتابٍ في الطب نقل الى العربية . وجآء بعدهُ الوليد بن عبد الملك فزاد هذه الصناعة تعزيزاً وبنى دوراً للمرضى وجعل فيها الاطبآء والممرّضين وأجرى عليهم الارزاق . وذكر ابو الفرَج ان الحجاج اختصّ

(١) قال في القاموس الكناشات بالضم والشد الاصول التي تتشعب منها الفروع قال صاحب تاج العروس ومنهُ الكناشة لاوراق تجعل كالدفتر يقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط هكذا يستعملهُ المغاربة واستعملهُ شيخنا في حاشيته على هذا الكتاب كثيراً . اهـ . واللفظة سريانية الاصل وهي كناش بدون هاء ومعناها جملة الشيء واصل الفعل بمعنى الجمع والضمّ ومنهُ اشتقاق الكنيسة وهي عندهم بالشين المعجمة و بالواو مكان اليآء واصل معناها الجماعة

والكناش للكتاب المذكور موضوع في الاصل باليونانية وواضعهُ أهرون المشار اليهِ ثم نقلهُ سرجيس الراس عيني الى السريانية وعنها نقلهُ ماسرجويه الى العربية

بخدمتهِ اثنين من الاطبآء وهما تياذوق وثاودون قال وكان لتياذوق تلاميذ اجلآء تقدموا بعدهُ ومنهم من ادرك الدولة العباسية كفُرات بن شحناثا في زمن المنصور . الا ان الطب لم ينل عندهم من العناية ما نالهُ بعد ذلك في عهد العباسيين بل منهم من كان يأبى التطبب تورعاً حتى روى ابو الفرج عن عمر بن عبد العزيز انهُ لما مرض قيل لهُ لو تداويت فقال لو كان دوآئي في مسح أُذُني ما مسحتها نِعم المذهوب اليه ِربّي . فلما افضت الخلافة الى بني العبّاس تقدم المنصور ثاني خلفآئهم الى عامله بِجُنديسابور ان يُنفِذ اليه جرجيس بن بختيشوع النسطوري وكان اشهر اطبآء وقتهِ فحظي عندهُ وعرّب لهُ كتباً في الطب عن الفارسية كما سبق لنا ايرادهُ . وتلاهُ ابنهُ بختيشوع وكان طبيب الرشيد وبقي بعدهُ الى ايام المتوكل ومما يُروَى عنهُ انهُ في بعض الايام تمطّت حظيّةٌ للرشيد ورفعت يدها فبقيت مرفوعةً لا يمكنها ردُّها والاطبآء يعالجونها بالتمريخ والادهان فلا ينفع ذلك شيئاً فاشار جعفر على الرشيد باحضار بختيشوع فاحضرهُ وشرح لهُ حال الصبيّة فقال جبريل ان لم يسخط امير المؤمنين عليَّ فلها عندي حيلة فقال الرشيد ما هي قال تخرج الجارية الى ههنا بحضرة الجمع حتى اعمل ما اريد وتمهل عليَّ ولا تسخط عاجلاً. فامر الرشيد فخرجت وحين رآها جبريل اسرع اليها ونكس رأسها وامسك ذيلها وهمّ ان يرفعهُ فانزعجت الجارية ومن شدة الحيآء والانزعاج استرسلت اعضآؤها وبسطت يدها الى اسفل وامسكت ذيلها . فقال بختيشوع لقد برئت يا امير المؤمنين فقال الرشيد للجارية ابسطي يدكِ يمنةً ويسرةً ففعلت فعجب الرشيد وكل من حضر

وامر لهُ في الوقت بخمس مئة الف درهم

وممن نبغ في وقتهِ يوحنا بن ماسويه صاحب التصانيف المشهورة وكان من بطانة الرشيد وكان يعقد مجلساً للنظر ويجري فيهِ من كل نوعٍ من العلوم القديمة . وخلف بختيشوع ابنهُ جبرائيل ثم جرجيس اخوهُ ثم بختيشوع ابن يحيي وكان طبيب المقتدر واستمرّت اعقابهم في بني العباس الى سنة ٤٥٠ للهجرة وكانوا على التدريس والترجمة في مدرسة بغداد والتطبيب في دار الشفآء بها ولهم تصانيف كثيرة . وذكر بعضهم ان عدد علمآء الطب ومدرّسيهِ وطلبتهِ في مدرسة بغداد ورجال ندوتها العلمية بلغ ستة آلاف نفس . واشتهر في هذه المدة عدة اطبآء غير هؤلآء منهم حُنَين بن اسحق العباديّ تلميذ يوحنا بن ماسويه وكان طبيب المأمون وعرّب كتب ابقراط وجالينوس وافلاطون وغيرها وبقي الى ايام المتوكل . ومنهم قسطا بن لوقا وثابت بن قرّة وهما ممن عرّب كتب جالينوس وابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي وهو احد الفلاسفة الذين اتصلوا بالمأمون والمعتصم وسنان ابن ثابت بن قرّة وكان من اطبآء المقتدر وابنهُ ثابت بن سنان وكان في ايام المطيع لله وكان يتولى تدبير البيمارستان(١) ببغداد . ومنهم عليّ بن عباس المجوسي الاهوازي صاحب كتاب الكامل صنّفهُ لعضد الدولة بن بويه وابو

(١) قال في شفآء الغليل البيمارستان لفظة فارسية استعملها العرب ومعناها مجمع المرضى لان بيمار معناهُ المريض وستان هو الموضع . اه . ويقال فيهِ ايضاً المارستان ذكرهُ في شفآء الغليل ايضاً وهو الذي اثبتهُ الجواليقي والمرتضى في تاج العروس وفسراهُ بما ذُكر لكن المتعارف اليوم انهُ موضع المجانين بالخصوص وبهذا المعنى استعملهُ بديع الزمان في المقامة المارستانية وابن الجوزي في كتاب الاذكيآء وكانهُ من باب الغلبة

الحسن هبة الله بن صاعد ويُعرَف بابن التلميذ كان قسيساً ببغداد وكان في ايام المقتفي لامر الله قالوا ولم يكن مثلهُ بعد ابقراط وجالينوس ومنهم ابو البركات هبة الله بن عليّ بن ملكا صاحب كتاب المعتبر في العلوم الحكمية وهبة الله بن الحسين الاصفهاني وغيرهم

وكان طب هؤلآء كلهم مأخوذاً عن كتب ابقراط وجالينوس قلما عدَوها ولم يكن لهم من الاستنباط او الاكتشاف في هذه الصناعة ما يُذكَر سوى ما يقال من انهم اوضحوا تشخيص بعض الحميات النفاطية كالجُدَريّ والحصبة والحمّى القرمزية لكن ربما زادوا في الصيدلة على ما تلقوهُ عن كتب اليونان فانهم على ما قيل اول من استقطر المياه والزيوت واول من استخدم مركبات الزئبق في الامراض الجلدية ولاسيما البرص واول من اشار باستعمال المنّ والسنا والتمر الهندي والرِوَند والكافور وغير ذلك . واشهر من اشتغل من اطبآئهم ابو بكر محمد بن زكريآء الرازي مؤلف كتاب الاقطاب في ثلاثين مجلداً وكتاب الحاوي في خمسة عشر مجلداً وغيرهما ولهُ رسالةٌ في الجدري والحصبة يقال انها اقدم كتابٍ ورد فيهِ ذكر هذين المرضين ويُنسَب اليهِ اختراع الخلال المعروف عند الاطبآء وهو القائل اذا كان الطبيب حاذقاً والعليل موافقاً والصيدلانيّ صادقاً فما اقلّ لبث العلة . وكان الرازي من المتقدمين في الطب والهندسة والمنطق والموسيقى وهو اول من صنّف في الطبّ اخذاً عن جالينوس وعن كتب الهند والفرس وجآء بعدهُ ابن سينآء فبسط ما ذكرهُ الرازي في كتاب الحاوي وتمم ما فاتهُ ولذلك يقال كان الطبّ معدوماً فاوجدهُ ابقراط وميتاً

فاحياهُ جالينوس ومتفرقاً فجمعهُ الرازي وناقصاً فكملهُ ابن سينآء . وكان ابن سينآء العَلَم المشار اليهِ في جميع علوم وقتهِ لم يأتِ قبلهُ ولا بعدهُ من ادرك منزلتهُ او اشتهر شهرتهُ وكانت مؤلفاتهُ في الطبّ والفلسفة تُعَدّ خلاصة ما كُتِب قبلهُ حتى استغنى الناس بما كتبهُ وانقطعوا الى مصنفاتهِ ولا سيما في الطب فان كتابهُ القانون كان هو الكتاب المعوَّل عليهِ في آفاق الشرق عامةً ثم انتشر في اوربا فطُبع في رومية مع كتاب النجاة سنة ١٥٩٣ وبقي متداوَلاً في جميع مدارس اوربا نحواً من خمس مئة سنة وتُرجم الى اكثر لغاتها فكانت منزلتهُ في الطب منزلة المجسطى في الهيئة

هذا في بلاد المشرق واما في المغرب فكان في الاندلس اربع مدارس للطب احداها في قُرطبة والثانية في اشبيلية والثالثة في طُليطلة والرابعة في مرسية . وممن نبغ من الاندلسيين ابو القاسم خلَف بن عباس الزهراوي من اهل القرن الخامس كان طبيباً جرّاحاً لهُ عدة تصانيف منها كتابٌ في امراض النسآء وآخر في الجراحة وكتابٌ في تركيب الادوية وغير ذلك وهو اول من طُبعت مصنفاتهُ في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ . ومنهم بنو زُهر وهم اشبه ببني بختيشوع واشهرهم ابو العلآء بن زُهر بن ابي مروان ثم ابنهُ ابو مروان عبد الملك بن ابي العلآء ثم ابنهُ ابو بكر محمد بن ابي مروان . وعبد الملك هذا هو احد الذين اخذ عنهم ابن رشد الفيلسوف الطبيب المشهور وهو صاحب كتاب التيسير وكتاب الاغذية وكان لهذين الكتابين شهرةٌ عظيمة في المغرب والمشرق قيل وفي ايامهِ وصل القانون الى بلاد الاندلس فلم يعجبهُ وصار يقطعهُ ويصرّ فيهِ الادوية . ومنهم ابو الوليد

محمد بن رشد القرطبي وقد تقدم ذكرهُ والوزير ابو المطرّف عبد الرحمن ابن شهيد مصنف الادوية المفردة وابو عبد الله محمد بن معمر المالقيّ وهو صاحب عدة تآليف منها شرح كتاب النبات لابي حنيفة الدِينَوَري في ستين مجلداً . ومنهم ابن البيطار ضيآء الدين ابو محمد عبد الله بن احمد المالقيّ من اهل القرن السابع وهو صاحب كتاب المفردات المشهور قال في نفح الطيب انهُ حشر فيهِ ما قدر عليهِ من تصانيف الادوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الادريسي الصِقِلّي وغيرها . قال وكان ابن البيطار اوحد اهل زمانهِ في معرفة النباتات سافر الى بلاد الاغارقة واقصى بلاد الروم والمغرب واجتمع بجماعةٍ كثيرة من الذين يعانون هذا الفن وعاين منابتهُ وتحققها ولهُ عدة تصانيف تدل على غزارة فضلهِ . اه . ومن معاصريهِ ابن نفيس عليّ بن ابي الحزم القُرَشي صاحب كتاب الشامل في مئة مجلد ولهُ كتاب المهذب في الكحالة وابو العباس ابن الرومية الاشبيلي ولهُ كتابٌ في الادوية المفردة ومنهم غير اولئك ممن يطول استقرآؤهم (ستأتي البقية)

الورق

لا حاجة الى الاطناب في مكان الورق من المجتمع المَدَنيّ وموضعهِ من العلم والسياسة والتاريخ وسائر مقوّمات العمران اذ هو خزانة الافكار والاقوال ومستودَع العلوم والصنائع وترجمان الانبآء والحوادث وامين العهود والحقوق وعلى الجملة فهو معرض عقل الانسان وسجلّ اعمالهِ ورسول

السلف الى الخلف . وقد كان الناس قديماً يمثّلون اقوالهم في الحجر والصلصال ثم صاروا يودعونهـا الواح العظام واوراق النبات ثم صاروا يكتبونها في جلود الحيوان الى ان تسنى لهم اختراع الورق فكان الفتح الذي استولى بهِ الانسان على معاقل المدنية واتسعت امامهُ مذاهبها وسَهُل بهِ نشر العلم في آفاق المعمور ونقلهُ من امةٍ الى امة ومن عصرٍ الى عصر

اما اختراع الورق فقد كان اول ظهورهِ في الشرق الاقصى والصينيون ينسبون اختراعهُ الى واحدٍ من ملوكهم من سلالة تسين نحو سنة ١٨٠ قبل الميلاد ثم انتقل من الصين الى بخارا فكان يُصنَع فيها الى ان افتتح العرب هذه البلاد في القرن الثامن للميلاد فاتخذوا هذه الصناعة عن اهلها ثم نقلوها بعد نحو مئة سنة الى الاندلس وبلاد اليونان ومن هناك انتشرت شيئاً فشيئاً في جميع اقطار اوربا . وكان الورق اولاً يُصنَع من القطن فلما انتهت صناعتهُ الى اوربا اخذوا يتوسعون فيها فصاروا يصنعونهُ من الخِرَق اي من خرَق القطن والكتان ولا يُعلَم من اي عهدٍ ابتدأ ذلك لكن اقدم ما وُجد من هذه الصنعة كتابٌ كتبهُ السير جوَنفيل الى الملك لويس العاشر الملقب بالعنيد وكان ملكهُ ما بين سنة ١٣١٤ و ١٣١٦ وقيل انها كانت موجودةً منذ سنة ١١٥٦ فلا يبعد ان تكون من مستنبَطات العرب لان معامل الورق لم توجد في سائر اوربا الا بعد هذا التاريخ فانها اول ما انشئت في فرنسا في اواخر القرن الثاني عشر وفي ايطاليـا في اثناء القرن الثالث عشر ووجدت في هولندا بعد ذلك ولم تُعرَف في انكلترا الا في اواخر القرن السابع عشر

ثم انهُ لما كان طلبُ الورق يزداد سنةً عن سنة لعموم استعمالهِ وكثرة المستهلك منهُ ولا سيما بعد اختراع المطابع لم يعد ما يُجمَع من الخرَق كافياً لسدّ الحاجة منهُ فصاروا يتخذونهُ من القِنَّب والتبن والخشب وعدة موادّ اخر خشبية البناء . وكان الى اوائل القرن الحالي يُصنَع باليد فلا يتجاوز المصنوع منهُ قياس الطبق الواحد على حدّ ما هو الحال اليوم في المعامل الصغرى ولا يخفى ما في ذلك من كثرة النفقة وقلة الحاصل منهُ ولذلك حاولوا اختراع آلةٍ تستعمل فيهِ مكان اليد فوُفّق الى هذا الاختراع عاملٌ فرنسوي يقال لهُ لويس روبير ثم انتقل اختراعهُ هذا الى انكلترا وتداولتهُ من بعدها بقية معامل اوربا واميركا

وافضل المواد التي يُتَّخذ منها الورق الكتان والقنَّب واما خرَق القطن فان ما يصنَع منها لا يكون على الغالب الاّ هشّاً . واما كيفية صنعهِ فتؤخذ الخرَق اولاً وتنسَّل وتميَّز فِرَقاً بحسب نقاوتها ولونها ومكانها من الجدّة فتُجعَل كل فرقةٍ على حدة وبعد ان تنقَّى وينزع منها كل ما لا يقبل الحلّ من الاجزاء الصلبة تُجعَل في نحو برميلٍ من نسيجٍ معدني وتهزّ هزّاً عنيفاً حتى يتطاير منها كل ما علق بها من الغبار وخالطها من الموادّ الغريبة ثم تخرَج منهُ وتغلى في مغطس قلويّ لازالة ما يكون فيها من الموادّ الدهنية او الحوامض وبعد ذلك تُغسل بماءٍ صافٍ ثم تُرجَّل اي يخلَّص بعضها من بعض ومتى صارت نُسالةً مستقلّة تُقصَر بواسطة هيبوكلوريت الكلس وغاز الكلور وبعد ذلك تُمرَث حتى تصير بهيئة عجينة متماثلة الاجزاء قابلة لان تمدّ طبقاتٍ رقيقة متساوية الثخانة

اما مدّها فيكون بطريقتين احداهما وهي القديمة ان تُمدّ باليد فتؤخذ الكمية المرادة منها وتُجعَل في مِركَن وتُماع حتى يصير قوامها صالحاً للنوع المطلوب من الورق ثم تُوضَع على نار خفيفة وتُساط سوطاً متواصلاً الى ان يتمّ اختلاطها . ويكون بجانب المركن غراران اي قالبان بقياس الطبق المطلوب ويتخذ الغرار من كِفافٍ من الخشب قد بُسطت عليهِ اسلاك من الصفر متآزية ملززة وجُعل تحتها قضبان افقية من الخشب او المعدن تقويةً لها ويُجعَل فوق الكفاف كفافٌ آخر عليهِ اسلاكٌ دقيقة متخلخلة النسيج . ويقوم بهذا العمل اثنان احدهما يأخذ الغرار وعليهِ غطآؤهُ ويغمسهُ في المركن ويتنـاول فيهِ مقدار ما يسع من المائع ثم يرفعهُ بين يديهِ وهو افقيّ الوضع ويسوّي العجينة التي فيهِ بامرار يدهِ فوقـهُ وبعد ذلك يرفع الغطآء ويناول الغرار للعامل الآخر فيأخذهُ ويقلبهُ بين يديهِ حتى ينسلخ عنهُ طبق الورق فيلقيهِ على قطعةٍ من اللبّاد معدّة لذلك ثم يضع فوقهُ قطعةً اخرى من اللباد ليلقي عليهـا الطبق الذي يلي وفي تلك الفترة يكون العامل الاول قد اعاد العمل في الغرار الثاني فيتنـاولهُ منهُ وهكذا . فاذا اجتمع عددٌ معلوم من الاطباق جُعلت بما بينها من اللباد في مكبس وضُغطت حتى ينعصر ما فيها من المآء ثم يؤخذ الورق ويُنشَر في الهوآء حتى يجفّ ثم يُصقَل

واما الطريقة الثانية وهي طريقة العمل بالآلات فكل ما يُصنَع بها للطلب الواحد يكون من طبقٍ واحد من الورق ذي عرضٍ محدود ولكنهُ يمتدّ طولاً على قدر العجينة التي يُصنَع منها . وذلك انهُ بعد ان تُعدّ العجينة

على نحو ما ذُكر توضع في مركنٍ قد رُكّب فيهِ مسواطٌ دائم التحريك فاذا تم امتزاجها وصارت في القوام المطلوب تسقط منبسطةً على نسيج معدنيّ متصل الطرفين والى جانبيهِ سيرٌ عريض من الجلد يمنع العجينة من السقوط ومن هناك يدخل طرفها بين اسطوانتين قد لُفتا باللبّاد والنسيج المذكور يتحرك حركةً جانبية فيذهب ويجيء على الدوام فتتمدد العجينة عليهِ بهذه الحركة ويسيل ما فيها من الماء من خُرَب النسيج . وبعد ان تمرّ العجينة بين الاسطوانتين تقع على نسيجٍ من اللبّاد متصل الطرفين ايضاً فيدفعها الى اسطوانتين اخريين فتعصرانها مرةً اخرى بحيث يصير فيها من التماسك ما تستقلّ بهِ فتنجرُّ من نفسها وتلتفّ على اساطين غليظة من الحديد محماة بالبخار حتى تجفّ تمام الجفاف ثم تمرّ بين اساطين الصقال وبعد ان يتمّ صقالها تلتفّ على مدرج فلا يبقى الا ان تؤخذ من هناك فتقُطَع قِطعاً او اطباقاً

وعلى مثل ما ذُكر يُصنع الورق من التبن والخشب ونحوهما فيُجعل ما يرادصنعهُ منهُ بعد ان يُقطَع الخشب قطعاً صغاراً في مغاطس قلوية لازالة المواد الصمغية الملتصقة بالالياف النباتية وبعد اخراجهِ من هذه المغاطس يُسحَق سحقاً متتابعاً حتى يصير عجينةً صالحة للعمل فيتمّ على ما وصفنا وفي كل ما ذكر هنا تفاصيل طويلة اقتصرنا منها على هذا القدر حب الاختصار

المرّاش ومينار

اشرنا في ترجمة وطنينا العالم الفاضل المرحوم عبدالله المرّاش الى ما كتبهُ من النقد على ترجمة كتاب مروج الذهب الى اللغة الفرنسوية بقلم المسيو بربياي دمينار احد مشاهير علماء الفرنسيس ووعدنا ان ننشر النقد المذكور على صفحات هذه المجلة ايذاناً بفضل الكاتب رحمهُ الله واحياءً لآثارهِ في خدمة اللغة والذياد عن ائمتها وتنبيهاً لاولئك القوم الى التثبت فيما يطبعون وما يترجمون من اسفارها حرصاً على اغراض مؤلفيها وتنزيهاً لهم عما يُنسب اليهم من السفاسف المحرَّفة مما يضيع بهِ فضلهم ويلقي على اقوالهم شبهة اللغو والخطأ. على أنّا والحق يقال لا ننكر ما لاولئك القوم من الفضل في احياء كثيرٍ من كتب السلف وما يبذلون من الجهد في ضبطها وتصحيحها كما لا ننكر عليهم فضل المثابرة في درس هذه اللغة وادراك الشيء الكثير من احكامها وضوابطها غير انهُ يسوءنا ان نرى فيهم من الصلَف والدعوى والاستئثار بمزية اللغة على اربابها ما ادّى الى افساد الكثير من تلك الكتب وضياع رونقها وذهاب كثيرٍ من فوائدها. وهذا ما دعا وطنينا المرحوم المشار اليهِ الى تكلف نقد هذا الكتاب مما سترى فيهِ من الغرائب ما يقضي بالعجب العجاب . ولا بأس قبل الشروع في نشر النقد ان نذكر شيئاً من كلامهِ في هذا المعنى نقلاً عن بعض رسائلهِ نجعلهُ بمنزلة مقدمةٍ للنقد المذكور وان خرج احياناً الى ما لا يخلو اثباتهُ من فكاهةٍ او فائدة والحديث شجون . فمن ذلك ما كتب بهِ الينا

بتاريخ ١٢ آب (اوغسطس) سنة ١٨٩٧ قال

« اتفق لي في هذه الايام الوقوف على كتاب مروج الذهب للمسعودي وهو اهمّ كتابٍ تولى ترجمتهُ الاستاذ بربياي دمينار وقد شرعت في تقييد ما عثرت عليهِ من اوهام ذلك الاستاذ اعني المواضع التي اخطأ فيها المرمى والعبارات التي عكس معناها واحالهُ الى غير مراد القائل . اما الغلطات التي يمكن تأوُّلها او عَزْوُها الى النساخ وهي كثيرة جدًّا في المجلد الاول فليس في عزمي ان اعرّج عليها اولاً لان الاسفاف الى الترَّهات مع وجود اشياء ذات بالٍ تني بمرادنا ينبغي اجتنابهُ تفادياً من ان نُنسب الى التحامل وثانياً لان الاستاذ نفسهُ قد تبرأ من مسؤولية الخطأ فيها فذكر في المقدمة ان نسخ الكتاب التي وقعت اليهِ وان كانت متعددة الا انها كلها سقيمة وهذا ضربٌ من الاحتراس يلجأ اليهِ المستعربون جميعاً لكنهُ لا يجوز على من ينعم النظر في رقاعاتهم لان اكثر ما يكون خطأهم في المواضع التي لا تحتمل اللبس ولم يقع فيها غلط من النساخ فالقاؤهم على كاهل اولئك المساكين ما يرتكبونهُ هم انفسهم من فاحش الغلط يسوّغ لاولئك النساخ ان يتمثلوا بقول الشاعر

وحمّلتني ذنب امرئٍ وتركتهُ　كذي العُرّ يُكوَى غيرهُ وهو راتعُ

ومهما يكن من هذا فليس مرادي اليوم ان اشرع في التنبيه على اوهام استاذنا بل سيأتيكم ذلك تباعاً على اثر مراجعتي الكتاب مجلداً بعد مجلدٍ فكلما فرغت من مجلد ارسلت اليكم بما يعنّ لي فيهِ ولا اظن العمل يتمّ في اقل من شهرين لان الكتاب طويل يقع في تسعة مجلدات . على اني من

الآن اقول ان الاستاذ لم يتهيأ لهُ ان يستعين بسليمان الحرائري على ما كان ينعجم عليهِ في هذا الكتاب كما كانت عادتهُ ان يفعل في سائر ما يتعرض لهُ من امور العربية لانهُ لما كان من الذين قيل عنهم انهم اكثر الناس خطأً لا لعلةٍ اخرى الا لانهم لا يطيقون ان يخطأُوا كان شديد الخوف من انتقاد حرفآئهِ فلذلك كان يستعين (خفيةً) بسليمان الحرائري او غيرهِ فيما ينشرهُ من الاشيآء المهمة كما فعل في كتاب نوابغ الكلم للزمخشري فانهُ ما ترجمهُ ونشرهُ (في الجورنال اسياتيك) الا بعد ان ساعدهُ عليهِ الحرائري فلما مات المذكور ولم يبقَ لهُ من يستنيم اليهِ في كتمان السرّ احجم عن التعرض للاشيآء ذات البال في العربية واقتصر على التركية

وقد سآءني ما ذكرتموهُ من العوائق التي تصدكم عن طبع يتيمة الدهر او نشر غيرها مما كنتم تؤثرون نشرهُ الا اني مع الاستيآء من ذلك لم اتعجب منهُ لان هذه الازمة التي اعترت تجارة الكتب وما نشأ عنها من هبوط اسعار المطبوعات قد عمّت الدنيا باسرها لا بلادنا وحدها وسببها (كما يقول التجار في اصطلاحهم) زيادة المحصول على القاطعية فلذا كثر تشكي الصحّافين في اوربا واميركا وقد اجتمعوا لهذا الامر مراراً يديرون رأيهم فيهِ لكنهم لم يقفوا بعد على علاج ناجع وكانت تجارتهم تأول الى البوار لولا ما يتداركها احياناً من حسن البخت بان يقع احدهم على كتابٍ غريب في بابهِ فينشرهُ فيرغب الناس فيهِ ويعوّض على طابعهِ في طبعة واحدة ما اصابهُ من الخسائر في عامهِ اجمع . وذلك كما جرى لواحدٍ منهم اخيراً في كتاب طبعهُ هذه السنة فعوّض عليهِ خسائر العام وهو كتابٌ يبحث فيهِ عن

الاسباب التي جعلت الانكليز يفوقون غيرهم ومصنفهُ ادمون دمولان وهو رجلٌ فرنسويّ من طرف ابيهِ لكنهُ شرقيٌّ من طرف امهِ لان امهُ بنت وطنينا ميخائيل الحمصي من مدينة حلب . وانما ازداد خطب هذه الازمة تفاقمًا في مصر بما يجنيهِ المصريون على انفسهم من رداءة العمل وقلة الاعتناء بما ينشرونهُ من الكتب فان كان المجلد الكبير لا يباع باكثر من عشرة قروش مثلاً فذلك اولاً لقلة الطالب وثانياً ومن وجهٍ اخص لسقم طبع الكتاب ورداءة ورقهِ مما يصدّ الناس عن مشترى مطبوعاتهم ولا سيما الاخيرة منها ولا عجب من ذلك فان الصحّاف منهم اذا همّ بنشر كتاب لم يزد على ان يستعير نسختهُ من دار الكتب الخديوية مثلاً ولا يعتني بتصحيحها كسلاً او عجزاً ويسلمها الى صفافٍ جاهل لا يكاد يفرق بين الصاد والزِق فيطبعهُ بحروفٍ قد براها طول الاستعمال على ورقٍ لا يصلح لغير صرّ الحلوى فيخرج وهو من السقم وكثرة الغلط بحيث لو رآهُ مصنفهُ لانكرهُ وتبرأ منهُ بتةً وصفع بهِ قفا طابعهِ . مثال ذلك كتابٌ وقع اليَّ من مدةٍ وجيزة قد جُمعت فيهِ ثلاث رسائل احداها في تهافت الفلاسفة للغزالي والثانية في الرد عليها لابن رُشد والثالثة في الحكم بينهما لواحدٍ من علماء الترك المتقدمين كتبها بايعاز السلطان سليمان الشهير فرأيت في ذلك المجلد ما لم اكن لاصدقهُ لو لم اعاينهُ فانهُ لا يكاد يخلو سطرٌ من غلطةٍ او حرفٍ مكسور او سقوط نقطةٍ او تداخل بعض احرف اللفظة في احرف جارتها وهذا فضلاً عن رداءة الورق فرددتهُ الى الذي ارسل بهِ اليَّ . ومثل ذلك ايضاً كتاب رسائل اخوان الصفاء ابيت ان اشتريهُ كاملاً ببضعة فرنكات

لسوء طبعهِ وآثرت عليهِ الملخَّص المطبوع في جرمانيا فاشتريتهُ باكثر من اربعين فرنكاً على ما فيهِ من السقط وما ذلك الا لان طبعتهُ ناصعة والمطالعة فيهِ سهلة فآثرتها على طبعة مصر الكاملة لاني رأيت العامة قد صدقوا في قولهم « يا مسترخص اللحم عند المرق تندم » .

وفي كتابٍ آخر بتاريخ ١٩ آب

« انجازاً لما وعدت بهِ في كتابي الاخير ارسل اليوم اليكم بجريدةٍ قيدت فيها القليل من الاوهام الكثيرة التي عثرت عليها في المجلدات الثلاثة الاولى من مروج الذهب وذلك من غير بحثٍ شديدٍ عنها ولم اعرّج على ما اخطأ فيهِ الاستاذ في النقل والطبع الا في المواضع التي افضى خطأهُ فيها الى فساد المعنى او احالتهِ الى غير مراد قائلهِ ولو اني تتبعت سائر غلطاتهِ وسقطاتهِ التي من هذا القبيل لملأتُ منها مجلداً ضخماً . وذلك انهُ قلما تخلو صفحةٌ من سقطةٍ او سقطتين كتذكير المؤنث وتأنيث المذكر وكالافراد حيث يتعين الجمع وبالعكس والتعريف حيث يجب التنكير وبالعكس والرفع او النصب او الخفض حيث يتعين خلاف ما اتاهُ والتخفيف حيث يجب الهمز وبالعكس . اما قلب الحروف او وضع الهمزة مكان العين والهاء مكان الحاء فذلك اكثر من ان يحصى يقول مثلاً « جرل » مكان رجل و « تحزحزَت » مكان تزحزحَت و « ينصبُّ » مكان ينضب و « رأى » مكان رعى و « هار » مكان حار و « فيافاً » مكان يباباً و « الفاغيرة » مكان الفاغرة . بل قلما اورد اسماً اعجمياً من الاعلام الا حرّفهُ تحريفاً مضحكاً يقول « سنجاريت » مكان سنحاريب و « النقر » مكان أليفَز وامثال

ذلك مما لو وقعت عليهِ عين صبيٍ من صبيان الكتاتيب عندنا لم يتردد في تصحيحهِ . وهذا كلهُ قد اهملت التعريج عليهِ لان الاستاذ يقدر ان يحتجّ فيهِ عن نفسهِ بان يقول هكذا وجدهُ في النسخ التي نقل عنها وليس التصحيح من ولايتهِ . على انهُ قد صحح في موضعين او ثلاثة وياليتهُ لم يفعل لانهُ اخطأ في تصحيح ما ليس فيهِ خطأٌ ولا اعلم كيف ان المستعربين الذين شاركوهُ في هذا العمل (كما هو مذكورٌ في الصفحة الاولى من الكتاب) او اعانوهُ عليهِ في مراجعة الاصل والترجمة (كما يقرّ هو نفسهُ في مقدمة المجلد الثاني) لم ينبهوهُ على ما ارتكبهُ من الاغلاط الفاضحة ولو من حيث الاعلام الاعجمية مع ان فيهم رجالاً من اهل الدراية ومعرفة التاريخ ولا سيما فيما يتعلق باخبار التوراة والاعلام الواردة فيها بل ان فيهم عالماً شرقياً اسمهُ وفيق بك اعانهُ على العمل وقابل الكراريس على نسخة قديمة من المروج كانت في حوزتهِ وبقي فيهِ مع ذلك ما يُضحك منهُ . ومما ذكرهُ في مقدمة المجلد الثاني انهُ لما كان آخذاً في طبع الصفحات الاولى من المجلد المذكور وصل اليهِ من القاهرة نسخةٌ من المروج قد طُبعت في بولاق فصارت عندهُ في جملة النسخ المتعددة التي جمعها لديهِ للاستعانة بها على ما كان شارعاً فيهِ الا انهُ (والله اعلم) لم يتنازل لمراجعة هذه النسخة لانها مما تولى طبعهُ الشرقيون فهي لذلك غير جديرةٍ بان يلتفت اليها الاستاذ . وكيف لا يطرّحها وينبذها ظهريّاً من كان يزعم مثلهُ ومثل غيرهِ من الاستاذين انهم قد اصبحوا من التبحر في العربية بحيث لم يبقَ بهم حاجةٌ الى العرب بل ان العرب انفسهم قد صاروا في افتقارٍ الى استفتاء

الاستاذ وامثالهِ فيما يعرض لهم من مشكلات اللغة ولذلك رأيت ان الاحتجاج عليهِ بحجةٍ يستخف بها ضربٌ من العبث واضاعة الزمان وان انجع الاشياء فيهِ ان ندينهُ من فمهِ ونقضي عليهِ بشهادة نفسهِ لا بشهادةٍ من الخارج وهذا ما فعلتهُ في اكثر المواضع فاني لم اتعقب من خطإِهِ الا ما يُنسَب الى جهلهِ لا الى غلط النساخ كما يتبين ذلك من مراجعة ما سأذكرهُ في محلهِ » . انتهى

وسنشرع في ايراد النقد من الجزء التالي ان شآء الله تعالى

﴿ انحطاط النيل ﴾

كان من انقباض مياه النيل في هذه السنة ما قامت لهُ البلاد وقعدت خوفاً من عموم الجدب وتلف المزروعات في القطر كلهِ لان النقص بلغ فيها الى حدٍّ لم يُعهَد لهُ نظير في السنين الغابرة . والذي يتبين من التقرير الذي وضعهُ السير جارستن وكيل نظارة الاشغال العمومية لمقاييس النيل بتاريخ ٢٤ يناير من سنة ١٩٠٠ الحالية ان هذه السنة هي احدى سنواتٍ خمس نقصت فيها مياه النيل عن معتادها منذ سنة ١٨٧١ الى السنة الحاضرة اي منذ وُجدت سجلاّت مضبوطة لمقياس النيل في اصوان . والسنوات الاربع الاخر هي سنة ١٨٧٤ و ١٨٧٨ و ١٨٨٩ و ١٨٩٢ لكن الذي ظهر من مقاييس هذه السنة ان النقص فيها افحش كثيراً مما كان في السنين المذكورة وقد وضع السير المشار اليهِ جدولاً ذكر فيهِ مناسيب المياه في اصوان للخمسة عشر يوماً الأُوَل من شهر يناير مع ما يقارنها من مقدار المآء

المنصرف وقابلها بما كان من ذلك في سنتي ١٨٧٨ و ١٨٨٩ لان سنتي ١٨٧٤ و ١٨٩٢ لم يلبث النقص فيهما الا اياماً معدودات . ونحن ننقل هنا ارقام المناسيب المذكورة لليوم الاول واليوم الخامس عشر من يناير لكلّ من السنين الثلاث وهي كافيةٌ للمقابلة . والارقام المذكورة هي على ما يأتي

سنة		المقياس		المنصرف		المقياس		المنصرف
		قيراط	ذراع	مك في الثانية		قيراط	ذراع	مك في الثانية
١٨٧٨	(١ يناير)	٥	٥	١٣٦٩	(١٥ يناير)	١٣	٤	١١٤٦
١٨٨٩	(« »)	١٢	٤	١١٣٤	(« »)	٢١	٣	٩٥٥
١٩٠٠	(« »)	٥	٣	٧٧٥	(« »)	٩	٢	٥٧٨

قال فيتبين من هذا الجدول ان مناسيب النيل باصوان في النصف الاول من شهر يناير من هذه السنة كانت احطّ جدًّا مما في السنتين الاخريين فانهُ في الخامس عشر من هذا الشهر صار المنسوب في تلك الجهة احطّ منهُ في مثل هذا اليوم من سنة ١٨٧٨ بقدر ذراعين واربعة قراريط وبقدر ذراع واثني عشر قيراطاً عنهُ في سنة ١٨٨٩ . اما مقدار ما انصرف من المياه امتاراً مكعبة في ذلك اليوم من سنة ١٩٠٠ فيكاد يقرب من نصف ما انصرف في مثلهِ من سنة ١٨٧٨ ويكون اقل من ثلثي ما انصرف في اليوم عينهِ من سنة ١٨٨٩ . واذا تصفحنا كتب المقاييس باصوان في التسع والعشرين سنةً الخالية اي منذ سنة ١٨٧١ نرى ان مياه النيل تصير عادةً الى ذراعين وتسعة قراريط في مارس او ابريل فان دامت مياه النيل على مثل هذا الهبوط فذلك دليلٌ واضح على ان مقدار المياه الصيفية سيكون في هذا العام اقلّ جدًّا مما كان في سنتي ١٨٧٨ و١٨٨٩ .

واحطّ ما وصلت اليهِ المياه باصوان في سنة ١٨٧٨ ثمانية قراريط وقد دُوّن ذلك في السابع والثامن من يونيو وهو عبارة عن منصرفٍ قدرهُ ٢٠٨ امتار مكعبة في الثانية واحطّ ما بلغتهُ المياه هناك في سنة ١٨٨٩ احد عشر قيراطاً وذلك في الرابع من يونيو وهو يعادل منصرفاً قدرهُ ٢٣٠ متراً مكعباً في الثانية . ولما كانت مياه النيل الآن احطّ مما كانت عليهِ في السنتين المذكورتين فاذا دام هبوطها على المعدَّل المشاهد اليوم فعند بلوغ النيل اقصى التحاريق يكون المنصرف اقل جدًّا من ٢٠٠ متر مكعب في الثانية غير انهُ من المحتمل ان تخفّ سرعة الهبوط وتأتي الامطار عاجلة في الاصقاع القبلية من اقاليم السودان فتفيض مياه البحر الابيض وينشأ عن ذلك اما زيادةٌ في مياه النيل واما وقوف الهبوط في ايام الشدة والضيق اي في شهري يونيو ويوليو . انتهى المقصود منهُ ببعض تصرُّف

ثم انّا اذا سقنا حساب النقص الى آخر الشهر الغابر اي مدة خمسة وسبعين يوماً بعد الموعد الثاني وجدنا ان المياه في اصوان قد هبطت الى ٤ قراريط فوق الصفر فيكون معدَّل النقص من ١٦ يناير الى ٣٠ مارس نحو ثلاثة ارباع القيراط كل يوم حال كونهِ في الخمسة عشر يوماً الاولى من يناير كان معدَّل النقص اليومي قيراطاً وثلث القيراط . على ان النقص ازداد بعد ذلك فبلغ في ٨ ابريل قيراطاً تحت الصفر واستمرّ كذلك الى ٢٤ منهُ وفي ٢٥ ارتفع المآء قيراطاً واحداً فصار على الصفر ثم بلغ في ٢٦ منهُ ٣ قراريط وفي ٢٧ ٤ قراريط ولعل في هذا ما يبشر بتحقق ما كان في الامل من بدء سقوط الامطار في النواحي الجنوبية والله يقبض ويبسط وهو وليُّ عبادهِ

وقد وردتنا القصيدة الآتية في معنى هبوط النيل من نظم حضرة الفاضل اللوذعيّ مصطفى بك نجيب وكيل ادارة الداخليـة في الحكومة المصرية فاحببنا اثباتهـا تفكهةً للقرآء　قال اعزّهُ الله

النيلُ أخلف فالقلوب صوادـي　　تشكو لهيب الشوق في الاكبادِ
يا نعمةً ما كان اسبغ فيضها　　تحيا النفوس بها ويحيا الوادي
يا ظمأةً باتت وليس لحرها　　من مطفئٍ لهيبها الوقادِ
ماذا الذي عاق الحبيب وصدَّهُ　　عن ان يزور وكان إلف ودادِ
ماذا الذي حبس الكريم عن الندى　　وأصمَّهُ عن سمع صوت منادِ
يا نيلُ قد عودتنا منك الوفا　　اذ كنت تأتينا على ميعادِ
فقبضتَ آمالاً تعـوَّد بسطَها　　طول المدى ملاّحهُ والحادي
أنّى لهُ جَوْدٌ يجـود بمـائهِ　　صفـواً بلا برقٍ ولا ارعادِ
يجري وما يجري على صفحاتهِ　　الا اللجين يـلوح للنقادِ
يحيي الانامَ وينشر الامواتَ من　　نبت الرُبى في اجمل الأبرادِ
تُجنى بهِ ثمراتُ ارض أُلبست　　حُلَل النـدى من فضلك المعتادِ
باركتَ فيها بالوفآءِ فقدُّرت　　اقواتها ووفت بكل مرادِ
وسقيتَ ظمآن النبات سلافةً　　فغـدا يميس بقـدّهِ المياد
قد كنت تنعش كل قلبٍ خائفٍ　　فرط الظما من حاضرٍ او بادِ
تُجري لنـا سنن الوفآء بعـادةٍ　　من اجمل العـادات للاجوادِ
تهدي لنـا الحسنى وفيك زيادةٌ　　(ابداً الى مبـداً لها ومعادِ)
كسرٌ بهِ جبرُ القلوب وموسمٌ　　بين المـواسم زينـة الاعيادِ

لله ابهام الزيادة معلناً بشهادةٍ تغني عن الإشهادِ
ضاع القياس فاين اصبعك التي منها الوفآء يشير بالاسعادِ
يا منهلاً ما كان يُعهَد قبلهُ ان يمنح السودان بيض ايادِ
تعطي الكثير بلا سؤالٍ للورى وعليك لونٌ من حيآء بادِ
أنّى تغيّر شيمةً مرضيةً ترجى محامدها على الآبادِ
أيتمتَ طفلَ النبت في حجر الثرى يا أرأف الآبآء بالاولادِ
ماطلتهُ دَيناً عليك وانهُ وقفٌ لحاجة جائعٍ او صادِ
كم روضةٍ يا نيل مذ أخلفتها عهد الوفا قد عوجلت بحصادِ
خلّفتها من طول هجرك في جوًى وسوادُ تربتها ثياب حدادِ
ذبلت فأمست لا نبات بارضها تصبو اليهِ نواظر الرُوّادِ
قامت على سيقانها اغصانها يسألنَ بالاوراق صوب غوادِ
ومزارع اضحت منابت ارضها هُشُماً تصافحنا بكف جمادِ
نشكو وكم نشكو مرارة فقده حرُّ المصيف وقلة الازوادِ
قامت على ضِفّاتهِ آلاتنا تسترشف القطراتِ بالاصعادِ
فكأنها في حرّها وزفيرها ولهيبها مثلٌ لكل فؤادِ
أعزز عليَّ بان ترى ضفّاتهُ تحثو التراب اسًى على الورّادِ
أعزز عليَّ بان اراهُ ولم يكن ما بيننا متتابع الإزبادِ
أعزز عليَّ بان ارى جنباتهِ ملقى الرمال لشامخ الاطوادِ
الله في حال البلاد واهلها فهو المزيل لكل خطبٍ عادِ
لا تبلغ الاقوام نيل مرادها ما لم يعنها الله بالإمدادِ

اسئلة واجوبتها

القاهرة — نرى من الشعراء من يستعمل نحو الأَيْد والوجد قافيتين في قصيدةٍ واحدة فهل يجوز ذلك تقولا بدران

الجواب — هذا عيبٌ من عيوب القافية يسمى سناد الرِدف وهو ان تكون احدى القوافي مُرْدَفةً والاخرى لا. والمراد بالرِدف حرف اللين قبل الرويّ سواءٌ كان قبلهُ حركةٌ تجانسهُ كواو العُود وياء العيد او لا تجانسهُ كواو الطَوْد وياء الكَيْد فانهُ متى وُجد في قافية بيتٍ من القصيدة لزم في سائر القوافي

القاهرة — ذكرت جريدة الاهرام ان امرأةً ولدت غلاماً لهُ قرنان في قمة رأسهِ كقرون الثور وعينان مشقوقتان بخلاف شق عيون الناس وأُذنان كآذان الماعز .. واما باقي جسمهِ فهو كاجسام سائر الناس فهل هذا من قبيل الوَحَم على ما يقال ام كيف حنا الياس العريان

الجواب — لاشك ان للوَحَم تأثيراً في الجنين كما يُعلَم من قصة يعقوب في التوراة لكن المعروف ان هذا يؤثر في بعض مواضع من الجلد بان يحدث فيهِ بُقعٌ مختلفة اللون والشكل وقد تكون مكسوةً بالشعر ولا يبلغ ان يقلب الخلقة من هيئة الانسان الى هيئة الماعز ولكن مثل هذا ينبغي ان يكون من فلتات الطبيعة التي لا يعلم سرّها الا الخالق عزّ وجلّ

فكاهات

رواية

سرقة الحب[1]

حدث في سنة ١٧٩٠ انهُ كان في مدينة ريمس رجلٌ متوسط الحال رزقهُ الله ابنةً آيةً في الجمال دعاها اوجيني فلما ترعرعت ارسلها الى احدى المدارس لتتلق فيها العلوم وكان والدها يفي نفقاتها مما يستفضلهُ من كدهِ واجتهادهِ . ولما اتمّت الفتاة دروسها عادت الى بيت ابيها وكان قد اصبح مسناً ضعيف الهمة فودت ان تعينهُ في تحصيل القوت وتوفقت الى وجود مدرسةٍ تدرّس فيها بعض العلوم فكانت تكتسب منها ما يفي بنفقاتها ونفقات بيتها

وكان في نفس المدينة فتىً رقيق الحاشية يدعى اوغست كان يعمل في احد المعامل الكبيرة فيحصّل منهُ ما لا يزيد عن كفايتهِ وكان اوغست ابيّ النفس عالي الهمة اميناً نشيطاً وكان بين رصفآئه مثال الاخلاص والوداد ولدى قيّم اشغالهِ مثال الامانة والاجتهاد . وحدث ان اوغست رأى يوماً اوجيني ذاهبة في الصباح الى المدرسة فأُعجب بها غاية الاعجاب وجعل كل يومٍ يمرّ من نفس المكان في نفس الوقت فيمتع عينيهِ بطلعتها البهية وتوالت

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

الايام على ذلك حتى حدث عندهُ بها ولعٌ شديد ودفعتهُ نفسهُ الى التعرف بها فرأى من لطف حديثها ورقة اخلاقها ما ضاعف حبهُ لها فقصد والدها وكلمهُ في خطبتها . وكان الوالد المسكين غير ميالٍ الى ابعاد ابنتهِ عنهُ وهي القائمة بمعاشهِ ولكنهُ خاف ان يحرمها راحة مستقبلها فاجاب اوغست الى طلبهِ بعد ان ترضى بذلك اوجيني . ولما عادت اوجيني الى البيت فاتحها والدها بالحديث فلم تبدِ ممانعةً وهكذا قُضي الامر فخطب اوغست اوجيني وجعل بعد ذلك يجدّ في عملهِ لتحصيل نفقات الزفاف ولم تترك اوجيني مدرستها رجآء ان تحصّل ما تعين بهِ والديها وتستبقي شيئاً لتجهيز نفسها . وكان اوغست يمرّ عليها كل يوم بعد انقضآء شغلهِ فتلاقيهِ في حديقة بيتها ويجلس الحبيبان يتحادثان ويتشاكيان وكانت هذه الدقائق تزيد اوغست ولعاً وهياماً فلم يعد يقوى على مفارقتها دقيقةً واحدة بل كان لا يصدق ان ينتهي عملهُ في المسآء حتى يطير على اجنحة الشوق الى مالكة فؤادهِ

وفي ذات يومٍ بينما كانت اوجيني في الحديقة تقطف بعض الازهار مرّ من هناك احد اصدقآء اوغست فوقف وحياها ثم قال آه ما اسعد اوغست لحصولهِ عليكِ وانتِ ولا شك تجمعين هذا الزهر لهُ فيالها من غبطة . قالت وهل الحصول على زهرة يُعدّ غبطة . قال نعم اذا كانت من يدكِ اللطيفة . فتبسمت اوجيني بتيهٍ ودلال ثم قالت اذا كان الامر كذلك فلا احرمك هذه الغبطة وتناولت زهرة وقالت اقبل مني هذه الزهرة . فطرب الفتى وقال اما وقد تعطفتِ عليَّ بهذه النعمة فهل لكِ ان تميها

وتضعي الزهرة في عروة ثوبي . قالت نعم وتقدمت اليهِ ثم وضعت الزهرة حيث طلب وهو يتأمل في جمالها الرائع ولطافة يدها وبياضها النقيّ

واذ ذاك سمعت اوجيني وقع اقدام فنظرت واذا باوغست آتٍ فاسرعت الى ملاقاتهِ ورأى الفتى الآخر انهُ لم يعد لهُ محل من الاعراب في تلك الجملة فاختلس نفسهُ وسار في طريقهِ . ولما قابلت اوجيني حبيبها رأتهُ مقطب الحاجبين فسألتهُ عن السبب فقال لقد سآءني اني رأيتكِ تضعين الزهرة بيدك على صدر هذا الفتى . قالت وماذا يمنع من ذلك يا اوغست . قال هو ما تعلمين من حبي لكِ فاني اكره ان ارى هاتين اليدين تخدمان غيري . فصعد الدم الى وجنتي اوجيني وخالجت صدرها افكارٌ شتى ثم سكنت روعها وقالت اودّ ممن يحبني ان يعرف مقدار امانتي ويعلم انني لا احتمل تهمة الخيانة . ثم اني لا ارى لك حقًّا يا اوغست ان تعترضني فيما افعل فانك وان تكن خطيبي الآن لم تصر زوجي بعد ولا حق لك في تقييد حريتي منذ الآن . ورأى اوغست تهيجها وقرأ في عينيها غيظاً شديداً فتلافى الامر وضمها الى صدرهِ مداعباً

واتفق في تلك الاثنآء ان جآء من باريز بعض الأُسر الشريفة الى رئس لقضآء فصل الخريف فيها فبعد ان استقرّ بهم المقام جعلوا يتنزهون في ضواحي المدينة ويزورون المحلات الشهيرة فيها وقصد بعضهم زيارة المدرسة التي تعلم فيها اوجيني فأُعجبوا بما عاينوا فيها من الترتيب والاتقان وكان بين الزائرين فتىً من اشراف الفرنسيس يدعى الكُنت دوفيم قد توفي والداهُ وتركا لهُ اموالاً طائلة لا منازع لهُ فيها . وكان قد علق ابنةً لاحد

الوجهآء تدعى لويز فاحبها واحبتهُ ولما جاءت مع اسرتها الى ريمس تبعها وأوى الى نزل بالقرب منها فكان يقضي اكثر اوقاتهِ عند حبيبتهِ ويرافقها حيث سارت وجاء معها ومع آلها الى المدرسة كما ذُكر . اما لويز فلم تكن جميلة المنظر غير انها جامعةٌ لافضل الصفات الحسنة التي يتحلّى بها النساء المهذبات فلما دخل الكنت المدرسة وقع نظرهُ على اوجيني فأخذت بمجامع قلبهِ لما رأى من جمالها الرائع ورشاقة قدها وعذوبة كلامها واغتنم فرصةً للاقتراب منها وقال هل انتِ موكلة بالتعليم هنا . قالت نعم . قال عجباً وكيف يمكنكِ مع نحافة جسمكِ ان تحملي مشاقّ التعليم واتعاب التدريس . فلم تبدِ اوجيني جواباً بل اطرقت برأسها الى الارض وصبغ الدم وجنتيها فزاد في جمالها . ثم قال الكنت أوَلا تروضين نفسكِ بالنزهة بعد عناء الشغل . قالت بلى . قال والى اين تذهبين . قالت الى الغابة التي في شمال المدينة . قال وفي اية ساعةٍ تذهبين . قالت في السادسة مساءً . قال وهل تذهبين غداً . قالت نعم . قال سأتحرَّى ان اقابلكِ هنالك غداً فان لي كلاماً اقولهُ لكِ . ثم اسرع الى قرب حبيبتهِ لويز فاتموا طوافهم في المدرسة وعادوا وبقيت اوجيني في حيرةٍ عظيمة وهي تلوم نفسها على ضربها هذا الموعد مع الكنت على غير قصدٍ منها وكلما خطرت لها مقابلتهُ ترتعش جزعاً وودّت ان تُعلِم اوغست بذلك غير انها خافت ان يكون سبباً لغيظهِ وربما اوّلهُ الى معانٍ مختلفة فغلب على رأيها ان تقابل الكنت تلك المرّة وحدها ثم لا تعود الى مقابلتهِ مرةً اخرى . ومرّ عليها اليوم الثاني وهي في قلقٍ شديد الى ان كان المساء وفرغت من شغلها فتأبطت مظلتها وسارت الى

الغابة ولما بلغتها اذا الكنت دوفيم ينتظرها تحت احدى الاشجار فلما رآها نهض مسرعاً وصافحها مرحّباً . وشعرت اوجيني انها ترتكب ذنباً ولكنها تجلدت وقالت ارغب اليك يا سيدي الكنت ان تخبرني بما تريد فانني لا استطيع ان اتأخر . قال قد اعددت لكِ هذا الحجر لتجلسي عليهِ اذا شئتِ . قالت لا فانني افضل المشي . فسار بجانبها ثم قال بلغني انكِ تهوين فلاحاً من فعلة المعامل وقد تعجبت كيف سمحت الاقدار ان يمتلك هذا الجسم اللطيف والهيكل البديع رجلٌ اقسى من الحديد واغلظ من خشب الباب . قالت كلٌّ يأوي الى ابنآء جنسهِ وانا لا اؤمل الحصول على زوجٍ من الاشراف فليس فيَّ ما يؤهلني لذلك . قال كيف لا وانتِ ملاكٌ تستحقين العبادة من اشرف ابنآء فرنسا واوسعهم جاهاً وثروةً فان الله لم يخلق هذا الجسم الا ليرتدي بمطارف الحرير ولم يوجد هذا الوجه الا لينير بين اوجه الملوك واصحاب الشأن فآه لو اسعفني البخت وعرفتكِ قبل الآن حتى كنت اجثو امامكِ طالباً يدكِ وكنت اعدّ نفسي من اسعد البشر بالحصول عليكِ . وجعل الكنت يزيد في اطرآئهِ وتمليقهِ حتى فقد قلب اوجيني النسآئي كل قوّةٍ مدافعة وفكرت فيما تصير اليهِ من السعادة مع هذا الكنت مما لا تحلم بهِ مع حبيبها اوغست الفقير . وبينما هما يسيران اذا باوغست قادمٌ ولما رأى اوجيني بجانب شابٍّ يجهلهُ صعد الدم الى رأسهِ وتبين الغيظ في وجههِ فاقترب بدون ان يسلم وقال ذهبت الى البيت يا اوجيني فلم اجدكِ وظننت انكِ تكونين هنا محل نزهتكِ فاتيت لآخذكِ فهيا بنا . فنظرت اليهِ اوجيني بعين حبٍّ ولكن بهيئة المتكبر وقالت لا

حاجة الى ان تأخذني انت الى البيت فانا اقدر ان اذهب وحدي . قال لكن اظن ان لي حقاً في مرافقتك انا خطيبك اكثر من هذا الشاب الذي اجهلهُ . قالت انهُ لا يجبرني على مرافقته بينا انت تأمرني ان اسير معك وقد اعلمتك قبل الآن انك لم تصر بعد في الدرجة التي فيها تحكم فاطيع . وبلغ الغيظ من اوغست منتهاهُ فحرق الأُرَّم وصاح مغضباً ستتكلم في هذا المعنى في غير هذا الوقت والآن فاما ان ترجعي معي والا فانك لن تري وجهي من بعد . قالت لست بذاهبة معك وانت وما تريد . فحوَّل اوغست وجههُ وسار وفي قلبه براكين من اليأس والقهر والنمّ . وحينئذٍ فتح الكنت فاهُ وجعل يصف لاوجيني شراسة اوغست ثم حقق لها مزيد حبه وانهُ لا بأس عليها اذا تركها اوغست فهو سيأخذها ويجعلها اسعد البشر ثم افترقا وقد الحّ عليها ان توافيهُ الى هنالك في اليوم الثاني . وفي المساء ذهب الكنت كعادته الى بيت خطيبته لويز فرآها دامعة الطرف فسألها عن السبب فقالت انها قد اغتمت لغيابه عنها ثم قالت اظنك همتَ بالمعلمة التي رأيناها امس فلم تعد تسأل عني . فسكت دوقيم ولم يجب فكان سكوتهُ داعياً لزيادة ارتيابها فخرجت الى الحديقة وهي تشرق بالدموع . وتبعها الكنت ليخفف ما بها ولكنهُ وجد من الرأي ان يعترف لها بانهُ لم يعد يحبها كالاول . فجاء اليها وقال اسمعي لي يا لويز اني لم افتتن بالمعلمة كما تزعمين ولكن قلبي قد كره الحب واودّ ان اقطع رُبُطهُ بيننا فسامحيني على ما مضى وانسيني في ما سيجيء . ولم تكن لويز متوقعةً لسماع هذه الكلمات فطار رشدها وسقطت الى الارض خائرة القوى فانهضها دوقيم واجلسها على

مقعدٍ خشبي وجلس بجانبها ثم اخذ الاثنان يتعاتبان ورأت لويز انهُ لم يعد امل في حصولها على محبته ِوتحققت خيانتهُ فهان عليها الموت وصممت على امرٍ خفي . فتمالكت روعها ثم قالت لهُ اذا كان هذا ما صممت عليهِ فوافِني غداً في مثل هذه الساعة الى هنا واحضر لي جميع رسائلي اليك فنتبادل كتُبنا ولا اعود اراك بعد . ففرح دوقيم بذلك ووعدها وسار . اما لويز فلم تغمض اجفانها كل تلك الليلة وقد اصابها شيء من الجنون وفي اليوم الثاني ذهبت الى محل الوعد وانتظرت حيناً واذا بالكنت آتٍ

اما اوغست خطيب اوجيني فظهرت لهُ حقيقة الامر للحال وعرف ان حبيبتهُ قد أُغريت على تركهِ ولكنهُ كان لشدة محبتهِ لها لا يهمهُ الا سرورها وكان يعلم ان الكنت هائم بلويز فعزم ان يفاتح الكنت بالامر ويخبرهُ انهُ ان كان حقيقةً يحب اوجيني فهو يتنازل لهُ عنها ولكن اذا كان قصدهُ اللهو بمعاشرتها حيناً من الزمن فانهُ يسعى بمنعهِ خوفاً على قلب اوجيني ان يتعلق بالكنت ثم ترى انهُ خانها فيكون ذلك عليها وبالاً . ولما كان مسآء الليلة المذكورة انطلق لمواجهتهِ فرآهُ يسير امامهُ الى ناحية الحديقة وعلم انهُ ساعٍ لمقابلة لويز فاحب ان يتبعهُ ليرى ما يكون او يسمع من حديثهِ ما يطلعهُ على حقيقة حالهِ . ولما التقى دوقيم بلويز كمن اوغست ورآء شجرةٍ بحيث يراهما ولا يريانهِ

فقالت لويز للكنت ألم ينهك ضميرك عن كسر قلبي أوَلا تزال مصمماً على قطع العلائق بيننا . قال لا دخل للضمير في شأننا فكما احببتك كرهتكِ واود ان اتخلص منكِ ونحن لم نأتِ الى هذا المكان للمعاتبة

فخذي رسائلكِ واعطيني رسائلي كما اتفقنا امس . قالت حسنٌ ايها الظالم
فخذ رسائلك ثم مدت يدها الى جيبها واخرجت منهُ مسدساً فوجهتهُ الى
صدر الكنت وقبل ان تتمكن من اطلاقهِ وثب الكونت عليها كالذئب
الخاطف فانتشل المسدس من يدها ووضعهُ في صدرها وافرغ منهُ
رصاصتين اخترقتا قلبها فسقطت على الارض ميتةً . وادرك الكنت موقفهُ
فاسرع وانتشل من تلك الجثة الجواهر والحلى التي عليها فوضعها في منديلٍ
في جيبهِ وهمّ بالهرب واذا باوغست قد خرج من مخبئه وهجم عليهِ وهو
يقول يا لك من قاتلٍ . ولم يكن الكنت ينتظر هذه المفاجأة ولكنهُ لم
يلبث ان استعاد رشدهُ فامسك باوغست وجعل يستغيث وينادي وسمع
اهل البيت اطلاق الرصاص واصوات الاستغاثة فاسرع والد لويز والخدم
بالمصابيح الى محل الحادثة فوجدوا جثة الفتاة مضرجة بالدماء والكنت
يصيح امسكوا اللص امسكوا القاتل . ولما كان جميعهم يعرفون الكنت وانهُ
خطيب لويز لم يشكوا في ان اوغست هو المجرم فاوثقهُ الخدام للحال وساروا
بهِ وهو صامت فاسلدوهُ الى الجند واُودع السجن واظهر الكنت حزنهُ
الشديد على مقتل لويز بتعزيةٍ لوالديها وفي اليوم الثاني دُفنت الجثة بالاكرام
اللائق ثم احتشد الجمهور في دار الحكومة لسماع محاكمة القاتل . اما
اوغست فكان صامتاً لا ينبس ببنت شفةٍ وقرر القضاة جريمتهُ فحُكم
عليهِ بالاعدام عند ورود الامر الملكي من باريز . وكان بين رجال الشحنة
فتىً ذو عين نقادة فرأى في حالة الكنت ارتباكاً وفي عيني اوغست براءة
وعفةً واستقامةً ثم تحقق بعد البحث ان اوغست لم يمسّ شيئاً من حلى

القتيلة ففكر ان في الامر سرًّا عميقاً وصمم على ادراكهِ . وفي اليوم الثاني اخذ الكنت رسالةً ففضها فاذا هي من اوغست يقول فيها

« انني تحملت القصاص عنك طائعاً وساقبل الموت بسرور لكن املي الوحيد انك بعد ان تخلصت من حبيبتك الاولى تكون مخلصاً لاوجيني فاني انما رضيت ان اضحّي نفسي حتى لا احرمها السعادة التي تؤملها بحصولها عليك وفي يقيني انها ستكون عندك في حالةٍ افضل كثيراً مما يمكن ان تجدهُ عندي . فاذا رأيت اني استحق مكافأةً منك لسكوتي عن فعلتك ولاجل تحملي تهمة القتل والسرقة وفوق ذلك الاعدام فالمكافأة الوحيدة التي اطلبها منك هي ان تعتني باوجيني من بعدي وان يكون من احسانك اليها ما ينسيها ذكري ولا يجعلها تحزن على فقدي »

وكان الكنت دوفيم قلق البال لا يقرّ لهُ قرار ولم يدرِ ان الشرطي المذكور آنفاً يتبعهُ كظلهِ فعزم ان يتخلص من جواهر وحلى لويز خوفاً من ان يراها احد فيكشف سرّهُ فركب السكة الحديدية وسافر قاصداً باريز . وكان في طريقهِ جسر حديدي كبير يمرّ عليهِ القطار فوق نهرٍ عميق فلما بلغهُ اخذ المنديل الموضوعة فيهِ الحلي والقاهُ الى وسط النهر واذ ذاك سُرّي عنهُ قليلاً وتحقق انهُ قد انتفت عنهُ كل شبهة . ولما وصل الى قصرهِ في باريز سجن نفسهُ في غرفتهِ غير ان ضميرهُ لم يكن يريحهُ دقيقةً من التبكيت فبات عرضةً للوساوس والافكار المزعجة وكثيراً ما همّ بالانتحار تخلصاً من تعب فكرهِ . وآخر الامر اخذ رسالة اوغست وكتب تحتها رسالةً الى اوجيني يعلمها بالامر على جليتهِ وانهُ اصبح ملعوناً من السمآء والارض

وسيسافر الى اقصى العالم حيث يموت منسياً وارسلها اليها . ثم انهُ نهض واخذ بعض ما يحتاج اليه ِ وسار الى محطة القطار عازماً على مهاجرة بلادهِ فلم يشعر الا ويدٌ حديدية قد قبضت عليه ِ وسمع صوت قائل ٍ يقول اتبعني يا حضرة الكنت دوقيم فالعدل محتاجٌ اليك . فاصفرّ الكنت وسقط الى الارض مغشياً عليه ِ فرفعهُ الرجل وكان هو الشرطي المذكور ووضعهُ في عربة ٍ ونقلهُ الى ريمس . وكان في صباح اليوم الثاني موعد انفاذ الحكم في اوغست فاخبر الشرطي الحكومة بان اوغست بريء وان الجاني هو الكنت وقدّم على ذلك البيّنات الناصعة وفي جملتها منديل الكنت وفيه ِ الحلى وعليه ِ اسمهُ وكان الشرطي قد التقطهُ حين القاهُ الكنت من نافذة القطار . ولما استُنطق الكنت اقرّ بما فعل فصدر عليه ِ الحكم بالاعدام وقبل انفاذ الحكم طلب ان يكتب وصاتهُ الاخيرة فاوصى بجميع امواله ِ واملاكه ِ لاوجيني للتكفير عما جنى عليها

ولما أُفرج عن اوغست وكانت رسالة الكنت قد بلغت الى اوجيني اسرعت للحال واقبلت الى اوغست فألقت بنفسها على قدميه ِ تطلب الصفح وقد علمت خطأها الجسيم وعلم اوغست ان ما اتتهُ لم يكن الا عن غرورٍ سطا على فؤادها الطاهر فاقترن بها وقضت حياتها معهُ وهي اوفى لهُ من نفسه ِ وأحنى عليه ِ من ضلوعه ِ وأطوع لهُ من بنانه ِ